فصول من حضارة بغداد

ناجي معروف

(١)
الحدائق والمتنزهات ببغداد

لقد انشأ العباسيون ببغداد جناناً وحدائق تعد نموذجا لأرقى ما وصل اليه فن تنظيم الحدائق • وقد تمتد جذور هذا الفن الذي رعاه العرب في كل بلد دخلوه الى مساكنهم في الجزيرة العربية كجنتي مأرِب اللتين اشاد بذكرهما القرآن الكريم ، وحدائق يثرب ، وبساتين الطائف التي كانت تشبه مناطق الألب والبيرنة ، او كما يذكر الأب (لامنس) اليسوعي انها كانت للقرشيين من أهل مكة ك (ريفيرا) في جنوب فرنسة • وقد اختيرت مواقع الحدائق في أماكن تشرف على مشاهد طبيعية ومناظر جميلة • وجلبوا لتنظيمها كل ذي خبرة في الزرع والنخل والغرس ، وهندسة الماء وجمّلوها بالصناعات المبتكرة لاستكمال وسائل الحضارة والترف ، فقد روي ان العباسيين ببغداد زينوا الاشجار ولبسوها بالمعادن الثمينة وزخرفوها ونشروا في ارجائها الميادين والطرق والصور والتماثيل ، ورفعوا اليها مياه دجلة بالدوالي وهي الكرود والدواليب وهي النواعير ، وأنفذوا اليها الاقنية والأنهار[١] وبذلك صار للعرب في الشرق فن عربي عباسي في تنظيم الحدائق كما صار لهم في الغرب فن عربي اندلسي في تنظيم الحدائق هناك • وقد ترك هذا الفن العربي آثاراً واضحة في تنظيم الحدائق الاسبانية والفرنسية وبلاد اوربة الأخرى • ولا شك في ان بلاد المشرق قد تأثرت ببغداد ايضا •

ومن امثلة الحدائق ببغداد : (حديقة المقتدر) وكانت كما ذكر المؤرخون ذات ميادين واسعة متعددة، غرست باربعمئة نخلة ذات طول واحد هو خمسة امتار ، وألبست جميعها خشباً من الساج المنقوش من أصلها في الأرض الى حد السعف بحَلَق من شَبَه مُذهَب • وكان يسير بين هذه الميادين نهر رصاص قلعي[٢] يمر على بركة مستطيلة طولها ثلاثون ذراعاً وعرضها عشرون ذراعا • وحولها اربعة طيّارات لطاف بمجالس مذهبة وأغشيتها دبيقي مذهب ، والى جانب هذه الحديقة تقوم دار الشجرة •

(١) اليعقوبي — البلدان ص ٢٦٤ •

(٢) الرصاص القلعي منسوب الى القلعة ، والقلعة اسم معدن ينسب اليه الرصاص الجيد • وقيل الى قلعة في اول بلاد الهند من ناحية الصين معدن من الرصاص وفيها تضرب السيوف القلعية وهي الهندية العتيقة • راجع معجم البلدان ٤ ص ٣٨٩ •

وذكر ابن الجوزي[٣] ان الوزير حامد بن العباس أهدى الى المقتدر البستان المعروف بالناعورة بناه له وأنفق على بنائه مئة الف دينار ، وعلق على المجالس التى فيه الستائر وفرشه باللبود الخراسانية ثم اهداه اليه •

وذكر المؤرخون ان القاهر بالله كانت لذته من الدنيا بستانه الكبير ببغداد والذي يروى ان النارنج غرس فيه ، وحمل اليه من البصرة وعمان مما حمل من ارض الهند فاشتبكت اشجاره ولاحت ثماره كالنجوم من احمر واصفر وبين ذلك انواع الغروس والرياحين والزهر • وقد جعل في ذلك الصحن أنواع الأطيار مما جلب اليه من الممالك والأمصار فكان ذلك في غاية الحسن •

واما حديقة « دار المملكة » التي أقامها عَضُد الدولة البويهي في أعلى المخرِّم فقد أفاض الخطيب[٤] في وصفها ، واستملاك ما حولها من الارض وافتتاح الميدان الواسع من حولها ومد الاقنية التي جرى الماء فيها اليها • وكانت دار المملكة تحاذى الفُرضة فنقض عضد الدولة اكثرها ولم يبق الا البيت الستيني الذى هو في وسط اروقة من ورائها اروقة في اطرافها قباب معقودة • وتنفتح ابوابه الغربية الى دجلة وأبوابه الشرقية الى صحن من خلفه بستان ونخل وشجر • ومما يروى عن عضد الدولة انه امر الناس ان يغرسوا فى كل خراب لا صاحب له • وغرس هو الزاهر وهو دار علي بن مقلة وكان قد صار تلاً وغرس التاجي عند قطربل وحوطه على ١٧٠٠ جريب[٥] •

وقد تفننوا في انتاج الورود المختلفة فقد ذكر التنوخي المتوفى سنة ٣٨٤ هـ في كتابه « نشوار المحاضرة » أنه رأى ورداً أسود حالك السواد له رائحة زكية وأنه رأى بالبصرة وردة نصفها احمر قاني الحمرة ونصفها الآخر أبيض ناصع البياض ، والورقة التي وقع الخط فيها كأنها مقسومة بقلم • ويروى ان الخليفة المعتضد كان يعنى بالورود فقد أمر بعمارة بحيرة وتحفيفها بالرياحين •

وكان عضد الدولة جعل الدار التى هذا البيت فيها « دار العامة » والبيت لجلوس الوزراء وما يتصل به من الاروقة والقباب مواضع للدواوين ، والصحن مناماً لديلم النوبة في ليالي الصيف •

وقد ابتاع عضد الدولة دوراً كثيرة كبارا وصغارا ونقضها ورمى حيطانها بالفيلة تخفيفا للمؤنة وأضاف عرصاتها الى الميدان وكانت مثل الميدان دفعتين، وبنى على الجميع مسناة • وقلع التراب وجعل موضعه رملا • وفكر في ان يجعل شرب البساتين من دواليب ينصبها على دجلة • وعلم ان الدواليب لاتكفي فاخرج المهندسين الى الانهار التي في ظاهر الجانب الشرقي من مدينة السلام ليستخرجوا منها نهراً يسيح ماؤه الى داره فلم يجدوا ما ارادوه الا في نهر الخالص فعلّى الارض بين البلد وبينه تعلية امكن معها أن يجري الماء على قدر من غير أن يحدث ضرر وعمل تلين عظيمين يساويان سطح ماء الخالص ويرتفعان عن أرض الصحراء اذرعاً وشق في وسطهما نهراً جعل له خورين من جانبيه وداس الجميع بالفيلة دوسا كثيرا حتى قوي واشتد وصلب وتلبد فلما بلغ الى منازل البلد وأراد سَوْقِ النهر الى داره عمد الى درب السلسلة فدك ارضه دكا قويا ورفع ابواب الدور وأوثقها وبنى جوانب النهر طول البلد بالآجر والكلس والنورة حتى وصل الماء الى الدار وسقى البستان • ويروي الخطيب

(٣) ج ٦ ص ١٥٩ •
ملحظ : لم يذكر استاذنا الدكتور ناجي معروف اسم المصدر ، ويبدو انه استكفى سهوا بذكر المجلد والصفحة عنه (المورد) •
(٤) تاريخ بغداد ج ١ ص ١٠٥-١٠٧ •
(٥) المنتظم ج ٧ ص ١١٤ •

ان النفقة على عمل البستان وسَوْق الماء اليه بلغت خمسة ملايين درهم .

وفي رأيي ان دار المملكة وحدائقها كانت في ارض الصرافية ، وهي الارض التي تعود ملكيتها الى آل المميز وهي الارض التي يقع فيها اليوم جامع عادلة خاتون ومكائن شركة كهرباء بغداد وهي ارض مرتفعة عن الارض التي تجاورها . وحدودها بين شارع الامام الاعظم شرقا ودجلة غربا والجسر الحديدي شمالا ومستشفى الكرخ الذي في محلة « العلوازية » وهي المخرم القديمة جنوبا ويلاحظ أن آثار النهر الذي جرّه عضد الدولة من نهر الخالص وعلّى ارضه بينه وبين البلد لا تزال واضحة جدا في الشارع الذي بين جامع عادلة خاتون حتى مقبرة الانكليز المحاذية لاعدادية التجارة وامام مطبعة دار الجمهورية قرب مقر دار الحرية للطباعة .

وقد وصف ابو هلال بغداد[٦] في عهده بقوله (كنت اركب من داري بباب المراتب[٧] الى دار معز الدولة بالشماسية في الاسواق بين الظلال والمحال والدروب وكذلك بالجانب الغربي والدور على دجلة متقابلة وبساتين متناهية وانها متشابكة وما فيها دار تخلو من الاغاني والافراح) .

وقد وصف ابو الوفاء ابن عقيل بغداد على عهده ايضا فذكر دجلة وما على جانبيه من قصور وبساتين ودواليب وشرفات متقابلة وما فيه من سفن وسميريات فقال : « والبَطُ يتلاعب في مشرعة الدار الشاطئية ولربما اختلطت أصوات أغانيها بترنيم دواليبها ، ونقيق بطها ، وضجة غلمانها وخدمها ، ودجلة تنسل بين شاطيء قصورها الشاطئية .. ثم قال:

(٦) مناقب بغداد ص ٣٤ .

(٧) باب المراتب من ابواب دار الخلافة وهي محلة كانت تختص بالكبراء وارباب المناصب .

ولقد نزلت كثيرا في سميرية منحدراً فما ازال اسمع هذه الانغام من شرعة الجسر بباب الطاق[٨] الى باب المراتب . وكان لدور الشط ابواب الى شوارعها وعلى كل باب مراكب مسرجة مهيأة ، وامامها في النهر سفن لركوب الشط ، والناس كأنهم في دعوة لا تخلو من ختان صبي أو زفاف امرأة وفي البيت مجالس القراء على الكراسي بالالحان ، ومسابقة السفن ... ثم قال : وكنت اسمع من المشايخ ان بدجلة خمسمئة مضفرة مزينة لا يركب فيها الا ظراف التجار « والأجناد وأرباب المقاطعات : بالرجل وغلامه ، والملاحون بالثياب الجميلة »[٩] .

(٢)

حدائق الحيوان ببغداد

اطلق العرب على حدائق الحيوان اسم (الحَيْر) وكان العرب قد عُنوا بمثل هذه الحدائق في مدنهم قبل الغرب بنحو الف سنة فقد انشأ هشام ابن عبدالملك في ديار الشام (حَيْراً) تبلغ مساحته تسعة كيلومترات مربعة وسوّره بسور لحصر الوحوش داخله[١٠] فقد ضم هذا الحَيْر : الخيل والبغال والحمر ، والغزلان ، والارانب ، والاوز ، والدجاج ، والحمام .. الخ .

وكان للخليفة الامين بن الرشيد ببغداد جماعة خاصة يركبون البغال يصطادون له الاسود ويضعونها في اقفاص ثم ينقلونها الى قصره . وقد وجه الامين الى جميع البلدان في طلب الوحوش والسباع والطير . ومن شغفه بالحيوانات انه عَمِل خمس حراقات اى

(٨) باب الطاق : من محال بغداد الكبرى في الرصافة ومنها محلة أبي حنيفة التي فيها مدرسة أبي حنيفة .

(٩) مناقب بغداد ص ٢٥–٢٧ .

(١٠) صبح الاعشى ج ٤ ص ٨٨ .

خمس سفن في دجلة على خلقة الاسد والفيل والحية والفرس والدَّلْفِين (الحوت) وكان الامين يتـــرد كثيرا على حَيْر الوحوش •

واشتهرت بغداد ومن بعدها سامراء بمثل هذه الحدائق وخطت لها الساحات الكبيرة وأعدت فيهـــا ابراج الحمام والطيور وحظائر الحيوانات والوحوش، وأقفاص الضواري والحيات والعقـارب والســـباع والاسود •

وكان الخليفة المقتدر بالله العباسي[11] مولعـــا بتربية الحيوانات الاليفة والوحشية والضارية كالاسود والفهود والنمور • وقد جمع عدداً كبيراً من الطيور والحيوانات والسباع واتخذ لها (حَيْراً) فـي دار الخلافة ببغداد • ويذكر المؤرخون انه كـان فيهـــا اصناف الوحش كل صنف في مكان خاص • فكـان فيها اربعة فيلة وفي دار أخرى مئة سَبُع كل سَبُع في يـد سبّاع ، وفي رؤوسـها وأعناقهـا السلاسل والحديد • وفي مكان آخر فيلة وسباع اخرى وكذا الزرافات والفهود •

ويظهر انه كان عند قصر الثريا ببغداد (حَيْر) للحيوان فقد جاء في تجارب الامم[12] ان الفرســان شغبوا في سنة ٣١٥ هـ وخرجوا الى « المصلى » فنهبوا القصر المعروف بالثريا وذبحوا الوحش الذي فـــي الحَيْـــر •

كما يظهر انه كان يجلب الى بغـداد غرائب المخلوقات فقد ذكر ابن ابى اصيبعة الخـزرجي[13] ان رسولا من كرمان جاء الى معز الدولـة وحمـل الحمار المخطط والرجل الذى كان طوله سبعة اشبار، والرجل الذي كان طوله شبرين •

ومن حدائق بغداد المشهورة بحيواناتها : حديقة الوزير ابن مقلة التي بناها بالزاهر على دجلة وهي من أكبر حدائق الحيوان ببغداد وكانت تتكون من عدة أجربة من الشجر بلا نخل ، عمل له شبكة ابريسم وكان يفرّخ فيه الطيور التي لا تفرخ الا في الشجر كالقمـــاري والدباسي والهـزار والبيـغ والبلابـل والطواويس والقبج • وكان فيه من الغزلان والبقر البدوية والنعام والايل وحُمُر الوحش •

وقد بُشِّر ابن مقلة يوما بأن طائراً بحريا وقع على طائر بري فازدوجا وباضا وأفقسا فأعطى من بشره بذلك مئة دينار[14] •

وقد كانت هذه الحديقة على شكل بستان عظيـم مربع الشكل وقد عمل في حائطه بيوتا تأوي اليهـــا الطيور وتفرخ ، ثم اطلق القماري والدباسي والنوبيات والبلابل والقبج والطواويس والشحارير والزيارب والهزار والبيغ والفواخت والطيور التي كانت تجلب من اقصى البلاد من المصوتة ومن المليحة الريش ممـا لا يكسر بعضه بعضاً • فتوالدت وتوارث منها اجناس مختلفة ثم عمـد الى باقي الصحن فطرح فيه الطيور حتى لا تطير ، كالطواويس والحجل والبط وعمـل منطقة اقفاص فيها فاخر الطيور • وجعل من خـلف البستان الغزلان والنعام والابل وبقر الوحش وحميره وغير ذلك من غرائب الحيوانات • وكان لكل صحـن أبواب تنفتح الى الصحن الآخر فيرى في مجلســـه سائر ذلك[15] •

(١١) الخطيب البغدادي ج ١ ص ١٠٣ •
(١٢) مسكويه ج ١ ص ١٥٩ وقـد وردت العبارة الاخيرة هكذا « الوحش الذي في الحـاير » والصحيح « الحَيْر » •
(١٣) عيون الانباء في طبقات الاطباء ج ١ ص ١٤٤ •
(١٤) المنتظم ج ٦ ص ٣١٠ •
(١٥) تجارب الامم لمسكويه ج ١ ص ١٥٩ مطبعة التمدن بمصر ١٩١٤ والمنتظم ج ٦ ص ٣١٠ •

(٣)

الاحتفالات الشعبية ببغداد

لقد اشتهر أهل بغداد بالمرح واللهو واقامة الحفلات الشعبية او التنكرية التي هي بالكرنفال الغربية اشبه وسنذكر في هذا الفصل نماذج وطرائف مختلفة منها •

ومما يذكر في هذا الصدد ما ذكره ابن الجوزى[١٦] في حوادث سنة ٤٨٨ هـ قال ما ملخصه: في ١٨ ربيع الآخر خرج الوزير عميد الدولة ابو منصور فخط السور على الحريم وقدّره ومعه المساح وتقدم بجبايات المال الذى يحتاج اليه من عقارات الناس ودورهم وأذن للعوام في الفرجة والعمل • وحمل اهل المحال السلاح والاعلام والبوقات والطبول ومعهم المعاول والسبيلات وانواع الملاهي من الزمور والحكايات والخيالات •

فعمل اهل باب المراتب من البواري المقيَّرة على صورة الفيل وتحته قوم يسيرون به • وعملوا زرافة كذلك • وأتى اهل قصر عيسى بُسميرية كبيرة فيها الملاحون يجدفون وهي تجري على هاذور •

وأتى أهل سوق يحيى بناعورة تدور معهم فى الاسواق •

وعمل اهل سوق المدرسة قلعة خشب تسير على عجلة ، وفيها غلمان يضربون بقسي البندق والنشاب • وأخرج قوم بئرا على عجل وفيها حائك ينسج وكذلك السقلاطونيون •

وكذلك الخبازون جاءوا بتنور وتحته ما يسير به ، والخباز يخبز ويرمى الخبز الى الناس •

وذكر ابن الجوزي[١٧] في حوادث سنة ٤٨٠ هـ انه ولد للمقتدى ولد من خاتون ابنة السلطان فزينت بغداد لاجله ، وجلس الوزير للهنأ بباب الفردوس ، ونصبت القباب بنهر مُعَلَّى ، وزينت سوق الصيارفة بأواني الذهب والفضة والجواهر •

وأظهر الكافوريون تماثيل من الكافور •

وأظهر قوم من صناعتهم عجباً ، فسيَّر الملاحون سفينة على عجل •

وأظهر الطحانون ارحاء تطحن على وجه الارض •

وذكر في حوادث سنة ٤٨١هـ[١٨] ان اهل باب البصرة في الجانب الغربي من بغداد شرعوا فى بناء القنطرة الجديدة ، فكانوا ينقلون الآجر في اطباق الذهب والفضة ، وبين أيديهم البوقات والدبادب •

وذكر[١٩] في حوادث سنة ٥١٧ هـ ان الخليفة المسترشد عزم على ختان اولاده واولاد اخوته وكانوا اثني عشر فاذن أن يعلقوا ببغداد أى ان يقيموا الافراح فعمل الناس القباب ، وعملت (خاتون) قبة بباب النوبي وعلقت عليها من الثياب الديباج والجواهر ما ادهش الناس • وعملت قبة في درب الدواب على باب السيد العلوي وعليها غرائب منحوتة ، ونصب عليها ستران من الديباج الرومي مقدار كل واحد منهما عشرون ذراعا في عشرين ذراعا وعلى احدهما اسم المتقي لله وعلى الآخر المعتز بالله • وأظهر الناس مخبآتهم من الثياب والجواهر سبعة ايام بلياليهن •

وفي حوادث سنة ٥٤٧ هـ[٢٠] اجرى احتفال ببغداد مدة سبعة ايام عُلقت فيه القباب فعمل الذهبيون قبة على باب الخان العتيق عليها صورة مسعود وخاص بك وعباس وغيرهم من الامراء بحركات تدور • وعلق ابن المرخم قبة فيها خيل تدور وعليها فرسان بحركات •

---

(١٦) المنتظم ج ٩ ص ٨٥ •
(١٧) المنتظم ج ٩ ص ٣٨ •
(١٨) المنتظم ج٩ ص٤٣ •
(١٩) المنتظم ج ٩ ص ٢٤٥ •
(٢٠) المنتظم ج ١٠ ص ١٤٨ـ١٤٩ •

وعلقت بنت قاروت بباب درب المطبخ قبة فيها صورة السلطان وعلى رأسه شمسه • وعلق « ترشك » قبة على سطح داره على تماثيل صور اتراك يرمون بالنشاب ، وعلق ابن مكي الاحدب قبة عليها جماعة من الحُدُب • وعلق جعفر الرقاص بباب الغَرَبة قبة عليها مشاهرات فاكهة اترج ونارنج ورمان وثياب ديباج • واقام السودان الكلالة فوق القبة يغنون ويرقصون • وعمل أهل باب الأزج حذاء المنظرة اربعة ارحاء تدور وتطحن الدقيق لا يدرى كيف دورانها • وعمل سُميرية على عجل تسير وانطلق الناس في اللعب •

(٤)

السعي والصراع والسباحة والالعاب السحرية ببغداد

١ ــ السعي : ذكر ابن الجوزي في حوادث سنة ٣٣٤هـ : ان من أعجب الامور المتولدة ببغداد في زمن معز الدولة البويهي : السعي والصراع وذلك ان معز الدولة احتاج الى السعاة بينه وبين أخيه في الري فيقطعون تلك المسافة البعيدة في المدة القريبة ، وأعطى على جودة السعي الرغائب فحرص احداث بغداد وضعفاؤهم على ذلك حتى انهمكوا فيه فنشأ له ساعيان يسعى كل واحد منهما نيفاً وثلاثين فرسخاً في يوم من طلوع الشمس الى غروبها يترددون مابين عكبرا وبغداد • وقد رتب على كل فرسخ من الطريق قوم يحضون عليهم فصاروا أئمة السعاة ببغداد • وانتسب السعاة اليهم • وتعصب الناس لهم •

وجاء في العسجد المسبوك ان شرف الدين الشرابي قائد جيوش المستنصر والمستعصم كان يهوى السعاة والعدائين وقال في حوادث سنة ٦٢٥ هـ : « وفيها جرى الكوثر الساعي من واسط الى بغداد في يوم وليلة • ووصل الى باب سوق البصلية قبل غروب الشمس بساعة ورزق قبولاً عظيما • واعطي خلعاً وأموالا من الدولة والتجار • ومن جملة ما حصل له نيف وعشرون فرساً ، ومن القماش بألف وسبعمائة دينار • ومن الذهب خمسة آلاف واربعمئة دينار ، ولازم خدمة اقبال الشرابي » •

وذكر صاحب الحوادث في اخبار سنة ٦٤٣ هـ ان الشرابي كان استاذاً للعدّاء معتوق الموصلي المعروف بالكوثر الذي كان يسابق عداء آخر هو علي ابن الاربلي • وكان الخليفة المستعصم بالله ، واولاده واقبال الشرابي يخرجون للتفرج عليهما • فقد جاء في الكتاب المذكور ان معتوقاً الموصلي جرى من داقوقا الى[٢١] بغداد ساعياً على قدميه في سنة ٦٤٣ هـ فوصل كشك الملكية[٢٢] ودخله • وكان الخليفة هناك ، ومعه الشرابي وهو استاذه ثم خرج من الكشك وعاد الى الوقف • ثم رجع الى الكشك وتخلف من النهار ساعة ونصف الساعة فقبل الارض بين يدي الخليفة • فتقدم له بخمسمئة دينار • وأعطاه الشرابي ثلاثمئة دينار • وحصل له من ارباب الدولة شيء كبير[٢٣] •

وجاء في العسجد المسبوك وفي كتاب الحوادث

(٢١) داقوقا ــ هي طاووق احدى المدن العراقية في محافظة كركوك اليوم •

(٢٢) الكشك ــ كالمنظرة بناء يجلس فوق سطحه للتفرج على سباق الخيل ، او العدائين او استعراض الجيوش • اما الملكية فيظهر انها من قرى بغداد بالقرب من هذا الكشك ربما كان قريبا من باب الحلبة اي باب الطلسم بسور بغداد الشرقية •

(٢٣) الحوادث الجامعة ص ٣٩١ • وفي العسجد المسبوك : معيوق الموصلي بدلا من معتوق ، والكوير بدلا من الكوثر • ولا شك في ان تصحيفا حصل في المصدر الاخير راجع الورقة ١٧٥ •

الجامعة في سنة ٦٤٦ هـ عن علي ابن الاربلي انه سعى على قدميه من داقوقا الى بغداد ايضا فوصل بعد العصر من يومه • وسبق معتوقاً الموصلي المعروف بالكوثر بنصف ساعة وسبع دقائق • ودار حول الكشك شوطا الى حين وصوله • وكان ممن خرج الى التفرج عليه : الخليفة المستعصم واولاده • وجلسوا في الكشك الى حين وصوله • وكان (علي) المذكور مختصاً بخدمة الامير مبارك ابي المناقب ولد الخليفة • فامر له بفرس من مراكبه الخاصة ، وخلعة ذهب • وأنعم عليه أيضا بخمسمئة دينار غير ماحصل عليه من الزعماء والمماليك ودار من الغد في البلد بالطبول ، والبوقات على الاكابر ، والاعيان ، وأرباب المناصب • فحصل له شيء كثير من الخلع والخيل ، والثياب ، والذهب ، والفضة ، وغير ذلك •

٢ ـ المصارعة : اما الصراع فكان معز الدولة يعمل بحضرته حلقة في ميدانه ، ويقيم شجرة يابسة تنصب في الحال ، ويجعل عليها الثياب الديباج ، والعتابي والمروزى وتحتها اكياس فيها دراهم • ويجمع على سور الميدان الطبالين والزمارين ، وعلى باب الميدان الدبادب ، ويؤذن للعامة في دخول الميدان فمن غلب أخذ الثياب والشجرة والدراهم • ثم دخل في ذلك احداث بغداد فصار في كل موضع صراع فاذا برع احدهم صارع بحضرة معز الدولة فان غلب اجريت عليه الجرايات[٢٤] •

٣ ـ السباحة : وشغف بعض اصحاب معز الدولة بالسباحة فتعاطاها اهل بغداد حتى احدثوا فيها الطرائف فكان الشاب يسبح قائما وعلى يده كانون فوقه حطب يشتعل تحت قدر الى ان تنضج ثم يأكل منها الى ان يصل الى دار السلطان •

(٢٤) المنتظم ج٦ ص ٣٤١ •

٤ ـ الالعاب السحرية : جاء في العسجد المسبوك في اخبار سنة ٦٤١ هـ ان انسانا ببغداد لعب على حبلين يرتفعان عن الارض نحو اربعين ذراعا فكان يمشي عليهما مشياً سريعا ماضياً وراجعا الى وراء وفي رجليه قباقب وعلى رأسه طفل صغير قيل : انه ولده ثم أخذ سيفا مشهورا وتركه معرضا على الحبل وقام على ام رأسه ، ورفع رجليه • وجعل يلبس سرواله ويخلعه مقلوبا • ثم اخذ جرة مملؤة ماء وجعلها على رأسه ومشى بها مهرولا من اول الحبل الى آخره ، وفي رجليه القباقيب وعلى رأسه الجرة ثم رماها وتعلق بالحبلين بابهام رجليه ، ولعب لعبا يذهل العقول • فلما فرغ من لعبه ونزل الى البدرية خلع عليه وأعطي فرسا ومئتي دينار • ثم مضى الى بيوت الامراء فحصل ما يزيد على ثلاثة آلاف دينار[٢٥] •

وذكر ابن الجوزي[٢٦] في حوادث سنة ٥٦٠ هـ قال : قدم رجل مغربي فنصب جذعاً طويلا ووقف على رأسه يعالج فحاكاه صبي عجان وسافر العجان في البلاد فقدم وقد اكتسب الاموال والجواري والخدم فنصب جذعين طويلين أحدهما الى الآخر وصعد ورقص على كرة معه بحبال • وحمل جرة ماء على رأسه ولبس سراويله هناك ورمى نفسه واستقبلها بحبل مشدود فحصل له مبلغ •

(٢٥) العسجد المسبوك ص ١٦٣ • والذراع تساوي نصف المتر •

(٢٦) المنتظم ١٠ ص ٢١١ •

(٥)

احتفال الخلفاء والسلاطين والوزراء ببغـداد

١ ـ تنصيب الوزير ابن الفرات

عندما قلد علي بن محمد بن الفرات في سنة ٣٠٤هـ خلع الخليفة المقتدر عليه سبع خلع ، وحُمل اليه من دار السلطان ثلاثمئة الف درهم، وعشرون خادماً ، وثلاثون دابة لرحله ، وخمسون دابة لغلمانه وخمسون بغلا لنقله ،وبغلان للعمارية بقبابها ،وثلاثون جملاً ، وعشر تخوت ثياب • وركب معـه مؤنس الخادم وغلمان المقتـدر الى داره بسوق العطش • وُردت عليه ضياعه ، وأقطـع الدار التي بالمخـرِّم فسكنها وسقي الناس في داره في ذلك اليوم وتلك الليلة اربعون الف رطل من الثلج[٢٧] •

٢ ـ ذكر الصفدي[٢٨] ان سبكتكين صاحب معز الدولة خلع عليه الخليفة الطائع لله ، وطوّقـه وسوّره ، ولقبه نصرالله • ولما توفى سـنة ٣٦٤ هـ خلف الف الف دينار وعشرة آلاف الف درهم ، وصندوقين جوهراً ، وستين صندوقا ملأى قماشـا وتحفاً ومئة وثلاثين سرجاً مذهبة منها خمسون كل واحد الف دينار والباقى فضة واربعة عشـر الف ثوب من القماش وثلاثمئة عِدْل فيها فرش ، وثلاثة آلاف رأس من الدواب ، والف جمل ، وثلاثمئة مملوك واربعين خادما • وكانت داره هي دار المملكة وقد غرم على سوق الماء اليها خمسة آلاف درهـم كما اسلفنا •

٣ ـ السلطان طغرلبك بين يدي القائم بأمر الله:

وذكر ابن الجوزي[٢٩] ان القـائم بأمر الله العباسي استقبل في سنة ٤٤٩ هـ السلطان طغرلبك وخلع عليه على الوجه الآتى :

سأل السلطان طغرلبك لقـاء الخليفة فأذن له بذلك وجلس رئيس الرؤساء في صدر رواق صحن السلام وبين يديه الحجّاب • ثم استدعى نقيبـي العباسيين والعلويين ، وقاضي القضاة والشهود فلما تضاحى النهار كُتب الى السلطان بما مضمونه الأذن عن امير المؤمنين في الحضور فأنفذ ذلك مع اثنين من الهاشميين ومن خدم الخواص خادمين ومن الحجّاب حاجبين • ولما وقف السلطان على ذلك نزل فـي الطيّار وكان قد زُين وانفذ اليه فانحدر ومعه عدة زبازب وسُميريات وعلى الظهر فيلان ، يسـيران بازاء الطيّار فدخل الدار والاولاد والامراء والملوك يمشون بين يديه ونحو خمسمئة غلام ترك فلمـا وصل الى باب دهليز صحن السلام وقف طويلا على فرسه حتى فتح له ونزل فدخل الى الصحن ومشى• وخرج رئيس الرؤساء الى وسطه فتلقاه فدخل على امير المؤمنين وهو على سرير عال من الارض نحـو سبعة اذرع عليه قميص وعمامة مصمتان وعلى منكبه بردة النبي صلى الله عليه وسلم وبيده القضيب فحين شاهد السلطان امير المؤمنين قبل الارض دفعات فلما دنا من مجلس الخليفة صعد رئيس الرؤسـاء الى سرير لطيف دون ذلك السرير بنحو قامة •• وطرح كرسي جلس عليه السلطان ثم استأذن امير المؤمنين في أن ينهض ويحمل الى حيث تفاض الخلع عليه فنزل الى بيت في جانب البهو •• فألبس الخلع وهي سبع خلع في زى واحد • وترك التاج عـلى رأسـه •• واخرج امير المؤمنين سيفا من بين يديه فقلده ايـاه واستدعى ألوية وكانت ثلاثة ، اثنان خمرية بكتائب صفر وآخر بكتائب مذهبة سمي لواء الحمد فعقـد منهـا امير المؤمنين لواءَ الحَمد بيـده • وانصـرف

(٢٧) المنتظم ج ٦ ص ١٣٨ •
(٢٨) الوافي ج ٨ الورقة ١١٥ •
(٢٩) المنتظم ج ٨ ص ١٨١ـ١٨٢ •

السلطان بعد ان قبل الارض وقبل يد الخليفة ووضعها على عينيه • وكان قد دخل جميع من في الدار من الاكابر والاصاغر الى مكان الاحتفال فشاهدوا تلك الحلل • وخرج الى صحن السلام فسار والخيل والألوية امامه • ولما خرجت الألوية رفعت من سطح صحن السلام وحطت على روشن بيت النوبة ومنه الى الطيّار لئلا تخرج من الابواب فتنكس • ومضى اليه رئيس الرؤساء وهنأه عن الخليفة وقال له : ان امير المؤمنين يأمرك أن تجلس للهناء بما افاضه عليه من نعمه •• وولاك من خدمته • وحمل اليه خلعة فقام وقبل الأرض ثم اتاه بسدة مذهبة وقال له : ان امير المؤمنين يرسم ان تلبس هذا التشريف وتجلس في هذا الدست وتأذن للناس ليشهدوا ما تواتر من انعامه فيبتهج الولى وينقمع العدو • وحمل السلطان في مقابلة ذلك خمسين غلاما اتراكا على خيول بسيوف ومناطق وعشرين رأسا من الخيل وخمسين الف دينار وخمسين قطعة ثياب •

٤ ـ السلطان ملكشاه بين يدي المقتدي بأمر الله :

وفي حوادث سنة ٤٨٠هـ ذكر ابن الجوزي[٣٠] ان الخليفة المقتدي بأمر الله استقبل السلطان ملكشاه السلجوقي وعليه الخلع والتاج والطَّوْقان وعلى يمينه ويساره اثنان من الخواص يرفعان ذيله ومثل بين يدي السُّدة وقبل الارض دفعات فقلده سيفين • وسأل تقبيل يد الخليفة فلم يجبه فسأل تقبيل خاتمه فأعطاه اياه فقبله ووضعه على عينه • وحضر الناس بأجمعهم فشاهدوا الخليفة والسلطان ثم انكفأ وحمل بين يديه ثلاثة الوية وثلاثة افراس في السفن واربعة على الطريق واستقبل من داره بالدبادب والرايات ونثرت الدراهم والدنانير وانفذ اليه الخليفة سريرا مذهبا ومخاد •

(٣٠) المنتظم ج ٩ ص ٣٥ـ٣٧ •

(٦)

الثلج والفاكهة في الدعوات والولائم البغدادية

١ ـ الماء المثلج :

جاء في المنتظم[٣١] ان جيوش بغداد كانت تعيش في الخيوش والثلج والريحان • وجاء في المنتظم[٣٢] ايضا ان ابن الفرات عندما قُلد الوزارة في سنة ٣٠٤ هـ سقى الناس في داره في ذلك اليوم وتلك الليلة اربعين الف رطل من الثلج وزاد ثمن الشمع والكاغد يومئذ •

ويقول ابن الطِقْطِقَى : وكان اذا ولي ابن الفرات الوزارة يغلو الشمع والثلج والكاغد لكثرة استعماله لذلك لانه ما كان يشرب أحد كائنامن كان في الفصول الثلاثة الا الماء المثلوج ولا كان أحد يخرج من عنده بعد المغرب الا وبين يديه شمعة كبيرة نقية صغيرا كان او كبيرا • وكان في داره حجرة معروفة بحجرة الكاغد كل من دخل واحتاج الى شيء من الكاغد أخذ حاجته منها[٣٣] •

٢ ـ تقديم الفاكهة اولا ثم الطعام واحداً بعد الآخر :

وذكر الصابي[٣٤] ان الوزير ابن الفرات كان يدعو الى مائدته ببغداد في كل يوم تسعة من الكتاب الذين اختص بهم « فكانوا يقعدون في جانبه

(٣١) ج ٥ ص ١٣٤ • وراجع تحفة الوزراء للصابى ص ٦٣ طبعة امدروز •
(٣٢) ج ٦ ص ١٣٦ •
(٣٣) الفخري ص ٢٣٩ •
(٣٤) الصابي
اشارة بتراء تهفو الى الصلة ، وقد سها الدكتور معروف عن اكمالها (المورد) •

وبين يديه ويقدم الى كل واحد منهم طبق فيه اصناف الفاكهة الموجودة في الوقت من خير شيء ثم يجعل في الوسط طبق كبير يشتمل على جميع الاصناف وكل طبق فيه سكين يقطع صاحبها ما يحتاج الى قطعه من سفرجل وخوخ وكمثري ومعه طست زجاج يرمي فيه الثفل • فاذا بلغوا من ذلك حاجتهم واستوفوا كفايتهم رفعت الاطباق وقدمت الطسوت والاباريق فغسلوا ايديهم واحضرت المائدة مغشاة بدبيقى فيه مكبة خيازر ومن تحتها سفرة أدم فاضلة عليها • وحواليها مناديل الغمر فاذا وضعت رفعت المكبة والاغشية واخذ القوم في الاكل وابو الحسن ابن الفرات يحدثهم ويوانسهم ويباسطهم فلا يزال على ذلك والألوان توضع وترفع اكثر من ساعتين • ثم ينهضون الى مجلس من جانب المجلس الذي كانوا فيه ويغسلون ايديهم والفراشون قيام يصبون الماء عليهم ، والخدم وقوف وعلى ايديهم المناديل الدبيقية • ورطليات ماء الورد لمسح ايديهم وصبه على وجوههم » •

٣ ـ تقديم الطعام الى الضيوف في اماكنهم :

وذكر ابن الجوزي[٣٥] في حوادث سنة ٣١١ هـ أن احد الكتاب وصف موائد حامد بن العباس فقال : حضرت مائدة حامد وعليها عشرون نفساً وكنت اسمع انه ينفق عليها كل يوم مئتي دينار فاستقللت ما رأيت ثم خرجت فرأيت في الدار نيفا وثلاثين مائدة منصوبة على كل مائدة ثلاثون نفسا ، وكل مائدة كالمائدة التي بين يديه حتى البوارد والحلوى • وكان لا يستدعى احدا الى طعامه بل يقدم الطعام الى كل قوم في اماكنهم •

وروى ابن الجوزي ان حامدا : كان ينصب في داره كل يوم عدة موائد ولا يخرج من الدار احد من الجلة والعامة والحاشية وغيرهم اذا حضر الطعام ويأكل حتى غلمان الناس فربما نُصب في داره في يوم واحد اربعون مائدة •

٤ ـ منادمة الضيوف :

ذكر ابن الجوزي[٣٦] في حوادث سنة ٤٧٨هـ ان الوزير فخر الدولة بن جهير كان يُحضر طبقة الاكابر وكان من عادة الوزير ان ينادم الحاضرين على الطبق ويشاغلهم حتى يأكلوا ولا يرفع يده الا بعد الاكل •

(٧)

تكييف الهواء وتبريد البيوت ببغداد

ذكر ابن ابي اصيبعة الخزرجي[٣٧] ان احد الكتاب روى ان جده قال ما ملخصه : دخلت الى بختيشوع بن جبرائيل وهو طبيب الرشيد في يوم شديد الحر وهو جالس في مجلس مُخَيَّش بعدة طاقات من الخَيْش وهو جالس في قبة عليها جلال من قصب مظهَّر بدبيقى قد صبغ بماء الورد او الكافور والصندل وعليه جبة ومطرف قد التحف به فعجبت من زيه فحين حصلت معه في القبة نالني من البرد امر عظيم فضحك وأمر لي بجبة ومطرف • وقال يا غلام اكشف جوانب القبة فكشفت فاذا ابواب مفتوحة من جوانب الايوان الى مواضع مكبوسة بالثلج وغلمان يروحون ذلك الثلج فيخرج منه البرد الذي لحقني •• ثم قال ولما كان في صلب الشتاء دخلت عليه يوما والبرد شديد وعليه جبة محشوة وكساء وهو جالس في طارمة الدار على بستان في غاية الحسن وعليها سمور قد ظهرت به وفوقه جلال

(٣٥) المنتظم ج ٦ ص ١٣٩ •

(٣٦) المنتظم ج ٩ ص ٢٤ •

(٣٧) عيون الانباء ج ١ ص ١٣٩ •

حرير مصبغ ولبود مغربية وانطاع ادم يمانية وبين يديه كانون فضة مذهب مخرق وخادم يوقد العود الهندي وعليه غلالة قصب في نهاية الرفعة فلما حصلت معه في الطارمة وجدت من الحر أمراً عظيما فضحك وامر لي بغلالة قصب وتقدم بكشف جوانب الطارمة فاذا مواضع لها شبابيك خشب بعد شبابيك حديد وكوانين فيها فحم الغضا وغلمان ينفخون ذلك الفحم بالزقاق كما تكون للحدادين •

وذكر المؤرخون ان المنصور كان يطين له بيت في الصيف يقيل فيه ثم اتخذ له وزيره ابو ايوب الموريانى ثيابا كثيفة تبل بالماء وتعلق فيمر بها الهواء فيبرد المكان ثم اتخذ له الخَيْش على قبة – والخيش – نسيج خشن من الكتان •

وذكر بعضهم انه دخل على الرشيد فاذا هو في هيأة الصيف في بيت مكشوف وليس فيه فرش على مقعد عند باب البيت • وكان لا يخيش البيت الذي هو فيه لأنه كان يؤذيه ولكنه كان يدخل عليه برد الخيش ولا يجلس فيه • وكان اول من اتخذ في بيت مقيله في الصيف سقفا يلي البيت الذي يقيل فيه • وكان يؤتى بغلائل قصب فتغمس بالطيب والزعفران وماء الورد فتنشر حتى تجف فيفعل ذلك مراراً فيعبق بيت مقيله بالبخور والطيب •

ولعل العباسيين هم الذين استحدثوا المروحة فى بيوتهم ذلك ان الرشيد امر أن يصنع له في مجلسه مروحة من الخَيْش تكون شبه الشراع للسفينة تعلق في سقف ويشد بها حبل يحركها وتبل بالماء وترش بماء الورد •

وذكر المؤرخون ان بختيشوع اقام دعوة غداء للخليفة المتوكل بسامراء وكان الوقت صائفا وحره شديدا فقال بختيشوع لأسبابه واصحابه : أمرنا كله مستقيم الا الخَيْش فأمر بابتياع كل ما يوجد منه بسامراء فحصل له كمية كبيرة من الخَيْش وأحضر النجارين والصناع فقطع لداره كلها صحونها وحجرها ومجالسها وبيوتها ومستراحاتها خَيْشاً حتى لا يجتاز الخليفة في موضع غير مخيش • ثم فكر الطبيب في روائح الخَيْش التي لا تزول الا بعد استعماله مدة طويلة فأمر بابتياع كل ما يقدر عليه من البطيخ فدلك الخَيْش ليلة كاملة بذلك البطيخ فأصبح وقد انقطعت روائحه فأمر فراشيه أن يعلق في الاماكن المذكورة فلما وافاه المتوكل رأى كثرة الخَيْش وجدته فقال اي شيء ذهب برائحته فقص عليه حديث البطيخ فعجب من ذلك وأراد المتوكل النوم فقال له اريد ان تنومني في موضع مضيء لا ذباب فيه وكان بختيشوع أمر أن تجعل أجاجين الدبس في سطوح الدار ليجتمع الذباب عليه فلم يقرب اسافل الدور ذبابة واحدة ثم ادخل المتوكل الى بيت مربع كبير سقفه كله بكواء فيها جامات يضيء البيت منها وهو مُخَيَّش مظهر بعد الخيش الدبيقي المصبوغ بماء الورد والصندل والكافور فلما اضطجع للنوم اقبل يشم روائح في نهاية الطيب لا يدري ما هي لأنه لم ير في البيت شيئا من الروائح والفواكه والانوار (الورود) ولم ير خلف الخيش طاقات ولا موضعا يجعل فيه شيء من ذلك فتعجب المتوكل وامر وزيره الفتح بن خاقان ان يتبع حال تلك الروائح حتى يعرف صورتها فخرج يطوف فوجد حول البيت من خارجه ومن سائر نواحيه وجوانبه ابوابا صغاراً لطافا كالطاقات محشوة بصنوف الرياحين والفواكه والمشام التي فيها اللقاح والبطيخ المستخرج ما فيها ، المحشوة بمواد مطيبة بماء الورد والخلوق والكافور والزعفران والشراب العتيق • ورأى الفتح بن خاقان غلماناً وكلوا بتلك الطاقات

مع كل غلام مجمرة فيها ند يسجره ويبخر به البيت من داخله ازار مخرم خروماً صغاراً لاتبين تخرج منها تلك الروائح الطيبة العجيبة الى البيت[٣٨] •

وجاء في الطبرى[٣٩] ان بنى امية كان يطيّن لها في الصيف سقف بيت في كل يوم فتكون قائلة الملك فيه ، وكان يؤتى باطنان القصب والخلاف طوالا غلاظا فترصف حول البيت ويؤتى بقطع الثلج العظام فتجعل ما بين اضعافها ويرى الطبري ان المنصور كان اول من اتخذ الخَيْش • ويروى انه كان يطين له في اول خلافته بيت في الصيف يقيل فيه • ثم اتخذت له ثياب كثيفة تُبَلّ وتوضع على شبابيك فيجد بردها • واستطابها وقال : ما أحسب هذه الثياب ان اتخذت اكثف من هذه الا حملت من الماء اكثر مما تحمل ، وكانت ابرد ، فاتخذ له الخَيْش فكان ينصب على قبة • ثم اتخذ الخلفاء بعده الشرائج واتخذها الناس • وكانت طريقة التبريد بالخَيْش المبلول على الدوام بالماء طريقة شائعة جدا حتى ذكر مسكويه ان أحد القواد في القرن الرابع الهجرى شاهد فرقة من الجند قادمة من بغداد فلم يرها أهلا للقيام بغزوة مهمة لانهم في رأيه قد ألفوا بيوت دجلة ، وشرب النبيذ والثلج ، وبيوت الخيش المبلل ، وسماع القيان • وبلغ الترف ببغداد بأهل بغداد ان حرّاقات دجلة التى كان يستعملها رجال الدولة في غدوهم ورواحهم كان يُعَدّ فيها الثلج ويعلق عليها الخيش المبلل بالماء ، وكانت ترخى على الخيش ستور من الاقمشة الخشنة تسمى بالكرابيس •

(٣٨) ابن أبي اصيبعة ج ١ ص ١٣٩-١٤١ •
(٣٩) الطبرى ج ٩ ص ٣٠٦ والشرائج جوالق كالخرج ينسج من خوص النخل ، وجديلة من القصب تجعل على باب الدكان •

(٨)
المزملات والماء المثلج

ذكر هلال الصابي في تأريخ الوزراء[٤٠] ان الماء ببغداد كان يُبَرَّد في اوان خاصة وان الثلج يطرح في تلك الاواني ويسقى جميع من يريد الشرب : الرجالة والفرسان والأعوان والخزان ومن يجري مجرى هذه الطبقة من الاتباع والغلمان كما كانت لديهم مزملات فيها الماء الشديد البرد •

والمزملة « كمعظمة » التي يبرد فيها الماء عند البغداديين من جرة أو خابية خضراء • في وسطها ثقب يركب فيه قصبة او رصاص يشرب منها سميت بذلك لانها تُزَمَّل اي تلف بشيء من الخَيْش او غيره • ويجعل فيما بينه وبين خزفها التبن تكون في دورهم أيام الصيف يبرد الماء ليلا بالبرادات ثم يصب في هذه الحبوب المزملة ليبقى باردا •

وكانت مزملات العظماء ببغداد تغلف بلب الخباز أى بقضيب الخيزران بعد تقشيرها وتبطينها بالحرير والديباج[٤١] وقد يكون صنبورها مذهبا، وذكر ابن الفقيه في كتاب البلدان ان المزملات كانت تعمل في محلة الخضيرية[٤٢] مما يلي باب الطاق بالاعظمية اليوم وقد تدل المزملة ايضا على الحبوب أو ما يشبه الحوض الذى يشرب منه الناس كمزملة المستنصرية التى كانت على شاطيء دجلة وكان قد عمل لها دولاب يقبض الماء من دجلة •

ويذكر المؤرخون انه كان في قصر ابن الفرات بالمُخَرِّم من بغداد الشرقية مزملات فيها الماء الشديد البرد ، كما كان برسم خزانة الشراب خدم

(٤٠) ص ١٠٩ •
(٤١) النشوار ص ٢٣ •
(٤٢) منسوبة الى خضير مولى صالح صاحب المصلى — راجع مخطوطة ابن الفقيه — البلدان •

نظاف عليهم الثياب الجميلة في يد كل منهم قدح فيه جلاب ومنديل نظيف فلا يتركون احدا ممن يحضر الدار من القواد والكتاب واماثل الناس واعيانهم الا عرضوا عليه ذلك •

ويذكرون ان السلطان عضد الدولة البويهي قد حظر عمل الثلج وجعله خاصاً بالسلطان •

وكان الثلاجون ينتهزون فرصة سقوط البرد فيجمعونه ويكبسونه في مخازن خاصة لبيعه في الصيف ويذكر ابن الجوزي[٤٣] انهم كانوا يجمعون البرد كباراً منها ما يزن خمسة ارطال ومنها ما يزن اوقيتين[٤٤] •

وفي الوقت نفسه كان الثلج يحمل الى بغداد من اماكن بعيدة فيشربون في الحفلات المشروبات المثلجة الممزوجة بالسكر وماء الورد والمسك كما كانوا يشربون قصب السكر بالثلج ويبردون الفواكه بالثلج ايضا •

(٩)

اطفاء الحرائق ببغداد

لعل الحريق من اخطر الاسباب التي ادت الى زوال المدن والقرى والاحياء والاسواق ودثور الدور والقصور والعقارات والحظائر والاضرحة والمشاهد والترب والآلات والجواهر ... الخ •

ومن اهم اسباب الحريق ببغداد : الحريق القضائي الذي يقع قضاء وقدرا • وحريق الصواعق والحريق المتعمد ، وحريق الفتن المذهبية ، والاحراق الحكومي ، وحرائق العامة • ومن امثلة هذه الحرائق ببغداد ما ذكره ابن الجوزي في حوادث سنة ٣٦٢ هـ قال : « أحصي ما أحترق فكان سبعة عشر الف وثلاثمئة دكان وثلاثمئة وعشرين دارا • اجرة ذلك في الشهر ثلاثة واربعون الف دينار ودخل في الجملة ثلاثة وثلاثون مسجدا »[٤٥] •

ويظهر ان المدن الاسلامية لم تكن يومئذ لتخلو من بعض الوسائل التي كان لها اثر فعال في اطفاء النيران واخمادها بواسطة السقائين ، والفعلة ، وباعداد حبوب الماء في سطوح المنازل وانشاء الفساقي في القصور وفي عمل حياض للماء في الدروب تملأ ماء لاطفاء النار •

وقد ذكر ابن الجوزي[٤٦] في حوادث سنة ٤٨٥ هـ حريقا كبيرا بنهر المعلى ببغداد الشرقية دام من الظهر الى العصر فتقدم الخليفة المقتدي الى عميد الدولة ابي منصور بن جهير فركب ووقف عند مسجد ابن جردة وتقدم بحشر السقائين والفعلة فلم يزل راكبا حتى اطفئت النار •

وفي سنة ٤٩٣ هـ كان اهل بغداد يقيمون على سطوح منازلهم من يحفظها من الحريق ونصب بعضهم الخيم في اعاليها واعدوا في السطوح حباب الماء[٤٧] •

وجاء في كتاب الحوادث الجامعة[٤٨] ان علاءالدين الجويني صاحب الديوان امر في سنة ٦٧٥ هـ بعمل حياض في دروب بغداد وان تملأ ماء ويستعد الناس في السطوح بالماء لاطفاء النار • ولعل هذه أول محاولة لجعل هذا العمل من المصالح العامة •

---

(٤٣) المنتظم ج ١٠ ص ١٨٩ •
(٤٤) المنتظم ج ٦ ص ٢٩٦ •
(٤٥) المنتظم ج ٦ ص ٦٠ •
(٤٦) المنتظم ج ٦ ص ٦١ •
(٤٧) المنتظم ج ٦ ص ١٥٧ •
(٤٨) ص ٣٩٠ •

(١٠)

مظاهر حضارية عامة ببغداد

ومن مظاهر الحضارة ببغداد ان العباسين كانوا يطعمون الفراريج الفستق المقشر ويسقونها الحليب ليأكلوا لحما غريضاً طريا تشتهيه الانفس لا يدانيه لحم من اللحوم الاخرى • كما انهم كانوا يعنون بالظباء فكانوا يأكلون لحومها ويشربون البانها • ولعل من اغرب مآكلهم التى تدل على مبلغ تحضرهم وانغماسهم في الترف انهم كانوا يبذلون جهدهم في اعداد اكلات من أدمغة الطيور وامخاخها ، وكبود الدجاج وألسِنة السمك والطيور ولو كلفت مبالغ طائلة •

ومن الغريب ان العرب عُنوا بالكلاب والدواب اكثر من عناية الاوربيين بها • ولئن عني الاوربيون اليوم بحمامات الكلاب وملابسها وعطورها فقد عُني العباسيون بكلابهم ودوابهم فكانوا يقدمون لكلابهم لحم الدجاج ولحم الضأن ، ويطعمون حميرهم السمسم ، كما عُنوا بأنساب الخيل والابل • وبحثوا في انساب الحمام والطيور • وخصصت في بعض الوقفيات اوقاف وخيرات على الفقراء والمساكين ، اطعم منها السنانير وحيتان الشط والطير من اللحم والخبز والشيلم كما جاء ذلك فيوقفية مرجان مؤسسالمدرسة المرجانية ببغداد • يضاف الى ذلك ان الحضارة العربية اوحت الى العباسيين ان يتفننوا فيالطهى ويتقنوا احسن انواع الاطعمة وان يؤلفوا الكتب المختلفة في الطبخ والطبيخ وأن يقتنوا صحاف الذهب وأجمل اواني الفضة والبلور والعاج والنحاس وكانت ملاعقهم من الذهب والفضة والزجاج والصدف • وكان يطوف على المدعوين غلمان اوقيان باكواب واباريق من فضة او ذهب • وكانوا يغسلون ايديهم في طسوت مفضضة وبالصابون الرقي[٤٩] وكان طعامهم يتألف من عدة اصناف يبدأ بالفاكهة وينتهى بالحلوى • وكانت الاصناف تقدم بعضها تلو بعض وقد اخذ الاوربيون هذه العادة من العرب فيما يظهر كما اصبح للأكل والولائم والموائد عندهم آداب خاصة حفلت بها الكتب العربية • وقد استطاع ابو الحسن علي بن نافع البغدادى الملقب (زرياب) ان يحمل معه الى الاندلس ضروبا من الفنون والرسوم والآداب الى جانب الغناء الذي تعلمه ببغداد • فقد زاد في اوتار عوده وتراً خامسا واخترع مضربا للعود من قوادم النسر بعد ان كان يتخذ من الخشب • واستطاع زرياب ان يعلم اهل الاندلس انواع الطهي البغدادى وينظم لهم المائدة فجعلهم يبدأون بالحساء ثم اللحوم والطيور وينتهون بالحلوى كما جعلهم يتخذون مفارش الموائد من الجلد الرقيق ويستعملون آنية الزجاج الثمين بدلا من آنية الذهب والفضة • وعلمهم استعمال نوع خاص من معاجين الاسنان تتخذ من بعض انواع النباتات يعجن مع مواد اخرى لتنظيف الاسنان •

ويذكر ابن ابياصيبعة الخزرجي[٥٠] انمائدة الطبيب البغدادي بختيشوع بن جبرائيل قدم فيها في يوم من ايام الصيف فراريج مشوية كانت تعلف اللوز والبزر قطونا وتسقى ماء الرمان ، وقدمت مائدة اخرى في يوم من ايام الشتاء فراريج كانت تعلف الجوز وتسقى اللبن الحليب •

وكان ترف الوزراء وبذخهم عجيبا فكان الوزير ابن مقلة ينفق ٥٠٠ دينار في الاسبوع على الفواكه فقط • وكان الوزير الحسن بن العباس ينصب الموائد يوميا في داره ولكل من دخلها من الموظفين او العامة

(٤٩) راجع ابن ابي اصيبعة ج ١ ص ١٤٠ •
(٥٠) عيون الانباء ج ١ ص ١٤٠ •

وقد يصل عددها الاربعين مائدة • وكان الوزير فخر الدولة بن جهير يحضره الاكابر وكان من عادته ان ينـادم الحاضرين على الطبـق ويشاغلهم حتى يأكلوا[٥١] •

وروى ان الوزير الحسن بن العباس اقام مرة في بستانه دعوة لاحد الامراء البويهيين في يوم بهيج من ايام الربيع فعمل له قصر فخم من السكر يتكون من اربعة طوابق • وقد ظهر فيه الغلمان والجوارى من السكر وهم يرفلون بالحلل ويحملون اللعب والملاهي المختلفة ، كما ظهر على شرفات القصر وطوقه اصناف الطيور والحيوانات والوحوش من السكر ، ومن خلفهم رجال ينفخون بالابواق والمزامير، فكان كل حيوان يخرج منه صوت شبيه بصوته • كل ذلك من السكر الملون بانواع النقوش والاصباغ • وبعد الفراغ من الدعوة المذكورة طاف الحاضرون في البستان ، فاعجبوا بهذا القصر السكري الذى انهال عليه الناس تهديما وأكلا، وهكذا وصلت الحضارة العربية ببغداد الى درجة الاشباع في كل ناحية ، من نواحي الحياة • ويمكننا ان نلمس ذلك في سلوك الناس وآدابهم ، وفي قصورهم الضاحكة ونعيمهم المقيم ، ولياليهم المشرقة ، وبيوتهم المموهة سقوفها بماء الذهب ، المزينة حيطانها بالفسيفساء الموزرة بالرخام المُفَوَّف ، المحلاة بالصور والتماثيل •

وقد اشتهرت قصور الخلفاء ومجالسهم بالعظمة والفخامة ، فقد روى المؤرخون ان الامين بنى ببغداد مجلساً لنفسه لم تر العرب ، ولا العجم مثله ، قد صورت فيه كل التصاوير ، وذهب سقفه ، وحيطانه وايوانه • وكان الايوان شاهقا افيح فسيحاً ، يسافر فيه البصر • وجُعِل كالبيضة ، ثم ذهب تذهيبا محلى بالابريز المخالف فيه باللازورد • وكان في المجلس ابواب عظام ، ومصابيح غلاظ تلألأ فيها مسامير الذهب قد قنعت رؤوسها بالجوهر النفيس ، وقد فرش بفرش كأنها صبغت بالدم ، منقشة بتصاوير الذهب وتماثيل العقبان ونفذ فيها العنبر والأشهب والكافور المصعَّد ، وعجين المسك •

وبلغ عدد الحمامات ببغداد الى حد لا يكاد يصدق ولا عجب في كثرتها لضرورتها في مجتمع نظيف أنيق وقد فصل الفقهاء والمشرعون ابواب النظافة والطهارة الى درجة لا نجد لها مثلا عند اية امة من الامم• وقد وصف القزويني[٥٢] مدرس الشرابية بواسط حمامات العراق فقال : « وبيوتها واسعة جداً ، وفرشها خصوصي ، وكذلك تأزيرها وتحت كل انبوبة حوض حجرية مثمنة في غاية الحسن، وسقفها جامات ملونة ، الاحمر ، والاصفر، والاخضر والابيض على وضع النقوش ، فالقاعد في الحمام كأنه في بيت مُدَبَّج » •

وكانت بعض مجالس الغناء ببغداد لا تخلو احيانا من اللعب بالخيّال او خيال الظل وهو عبارة عن العاب كانت تظهر بالليل او النهار على ازر بيض وتبرزها أضواء طائفة من الشموع في قاعات مظلمة •

والى جانب ذلك كله اتخذ الناس ببغداد الجوارى وألبسوهن الأقبية والمناطق وسموهن الغلاميات وأصبح الجواري في قصور الخلفاء يلبسن ملابس الغلمان • وازداد اختلاط الرجال بالنساء في القرن الرابع الهجري بحيث كان يحل في الدعوات والولائم محل ربة البيت نساء من جواري ربة الدار وكن نساء مثقفات ومدربات على ارقى الآداب الاجتماعية ، حائزات كل مظاهر الجمال والثقافة والفن ، متعودات على الحديث مع الرجال في غير وجل •

---

(٥١) ابن الجوزى ج ٩ ص ٢٤ •

(٥٢) آثار البلاد واخبار العباد ص ٢٦٣ •